دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد 32، العدد 1، 2005

منهج القرآن الكريم في صياغة تفكير الإنسان

*زياد خليل محمد الدغامين**

ملخص

من بين ملكات الإدراك التي أثارها القرآن الكريم في الإنسان ملكة "التفكر"، وسلك في ذلك منهجا صاغ به تفكير الإنسان ووجهه الوجهة السليمة، فقد جعل لعملية التفكير ضوابط تجعل مسار التفكير آمنا كسلامة الأسس التي يقوم عليها والتركيز واصطحاب ذكر الله، ودقّة المسلك وعظمة قضاياه. وأثار ملكة التفكر بأساليب عديدة، كأسلوب الاستفهام التقريري، والتذكير بالنعمة، ونصب القدوة والمثل، والإثارة والتشويق، وضرب الأمثال، وقد توضح ذلك في المبحث الأول من هذه الدراسة.

وتناول المبحث الثاني ميادين التفكير وهي: كتاب الوحي، والسنن الإلهية، وكتاب الكون، والحياة الدنيا. وتبين في المبحث الثالث أهداف التفكير ومقاصده كما تحددت في بيان القرآن، وهي: الاهتداء إلى وحدانية الله، والوقوف على مقاصد الحياة، وإصلاح النفس وعمارة الكون. وأجملت الخاتمة أهم النتائج.

المقدمـــة

يعظم شأن القرآن الكريم ويظهر إعجازه لا من خلال إحكام نظمه، وتنوع أساليبه، ودقّة تعبيره، وفصاحة ألفاظه، وإخباراته الغيبية،...، فحسب، بل كذلك - وغير ذلك - بما أجمله من موضوعات، وبما نظمه من حقائق - لا تنالها يد العقل - متصلة بالإنسان والحياة والكون، وبما تحدث عنه من ظواهر إنسانية وصفا وتشخيصا وعلاجا. ومن جملة هذه الموضوعات والظواهر الإنسانية موضوع التفكير بوصفه ملكة إنسانية تبعث في الإنسان القدرة على اختيار الأحسن والأصوب من كل ما يجده أمامه، أو إزاء ما يعرض عليه من عقائد ومذاهب وأفكار، وأخلاق وسلوك وتصرفات. وهي ملكة يمكن أن يرتقي بها الإنسان في حال استثمارها فينال أعظم مرتبة، ويتفيأ أسمى منزلة. ويمكن أن يضلّ بتعطيلها، أو توجيهها وجهة إبليسية خاطئة، فيكون أتفه مخلوق في هذا الوجود.

وبما أن هذه الملكة في الإنسان غير محدودة في نشاطها، أو بساطها الذي تمشي عليه، أو فضائها الذي تحلّق فيه، فإنّها قد تخبط خبط عشواء، وتهبط في كل مهواة من الأهواء، بفعل انفلاتها من كل قيد وشرط، وانخراطها في كل فساد وشر. لقد أطلق القرآن الكريم نشاط هذه الملكة باتجاه الحقّ، وحصر بساطها في عالم الشهادة، وطوى بساط عالم الغيب عنها مما يتعلق بذات الخالق جلّ جلاله، ووجهها الوجهة السليمة، والطريقة الآمنة المستقيمة في تسخير نواميس الكون، والاستجابة لسنن الله تعالى فيه، من أجل مصلحة الإنسان وخير الإنسانية، وجعل الوصول الى كمال الإيمان أسمى مقاصدها وأشرف غاياتها.

وستحاول هذه الدراسة بيان منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان بما حدد له من ضوابط وأسس وميادين وغايات. وتأتي أهمية هذا الموضوع في وقت أهمل فيه الناس عامة، والمسلمون -على وجه الخصوص- الانتفاع بهذه الملكة، وتوجيهها بما يصلح شؤون دنياهم وأخراهم، فانعدمت بالكلية عند كثير من أتباع الديانات الوضعية كالهندوسية والبوذية من أمم الشرق، فعبدوا ما لا يستحقّ العبادة، وهزلت عندهم قيمة الإنسان في عصر العلم والمعرفة، وسادت حياتهم فوضى في القيم والمثل والأخلاق. أما عند أمم الغرب فقد خرجت ملكة التفكير عن اعتدالها؛ فامتطت صهوة الشر فأنتجت بذكائها الشرير للبشرية ويلات لا يحمد عقباها من أسلحة الدمار الشامل، أومن مشكلات التلوث البيئي. وطغت هذه الملكة فاستخفت بكل قيم الخير والفضيلة، وغلب عليها سلطان المنفعة والمصلحة مجردين عن كل قيمة وفضيلة. وكان التفكير عندها رسولا كاذبا كلفته ليأتيها بحقائق عالم الغيب، ولما لم يأت بشيء أنكرت عالم الغيب جملة وتفصيلا، وأنكرت كل ما يتصل به من

---

* عميد كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن. تاريخ استلام البحث 2003/10/22، وتاريخ قبوله 2004/2/11.

تصورات وحقائق في هذا الوجود. أما المسلمون فلم يتهيأ لهم من الأجواء ما يمكنهم من تطوير هذه الملكة وتثويرها؛ لأن هذه الملكة لا تنمو في أجواء الاستبداد والظلم والقهر. ولم تهتم جامعاتهم ومؤسساتهم التعليمية بطرح مساقات تدريسية تتحدث عن ملكة التفكير، وأساليب تفعيله، وطرق استثماره، فقلّ المفكرون، وتضاءل عدد المبدعين، وانعكس هذا على الأمة فأصابها الضعف والوهن، وتداعت من كل صوب عليها الأمم.

لقد أدرك أبو حامد الغزالي - رحمه الله- أهمية التفكير وضرورته، فكتب في الإحياء مبحثا بين فيه حقيقة التفكر وفضله ومجاريه وكيفية التفكر في خلق الله تعالى. وأظهر حديثه للفرد أسرار صنعة الله، وبديع خلقه في الأنفس والآفاق، وجعل ذلك الحديث خالصا لإظهار المعاملة بين العبد وربه، فكان نطاق الدراسة وهدفها محدودين. كذلك، تطرق ابن الجوزي وابن قيم الجوزية في كتاباتهما إلى هذا الموضوع، وكان العقاد مصيبا عندما كتب "التفكير فريضة إسلامية"، مما يعني أن انعدام التفكير فيه تعطيل لمقاصد الشرع، ولمصالح الخلق. وكتب عالم النفس مالك بدري: التفكر من المشاهدة الى الشهود: دراسة نفسية إسلامية. وعلى قيمة هذه الدراسات وأهميتها إلا أن أيا منها لا يشكل دراسة موضوعية لآيات التفكر في القرآن الكريم؛ تبحث فيه عن منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان في ضوء توجيهات الوحي وهداياته.

إن هذه الدراسة معنية بالنظر في مفردة واحدة، وقع فعلها الثلاثي في "فـ كـ ر"، وتحاول أن تنجز هذا الموضوع في ثلاثة مباحث، وخاتمة:

المبحث الأول: التفكّر: مفهومه وضوابطه وأساليب القرآن في الحثّ عليه.

المبحث الثاني: ميادين التفكير وموضوعاته.

المبحث الثالث: أهداف التفكير ومقاصده.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

المبحث الأول

التفكّر: مفهومه وضوابطه وأساليب القرآن في الحثّ عليه

المطلب الأول: في مفهوم التفكر لغة واصطلاحا

ورد التفكر في لسان العرب ولغتهم ليعبر عن التأمل(1)، أو عن إعمال الخاطر في الشيء(2). وذكر البغوي أن التفكر هو تصرف القلب في طلب معاني الأشياء(3). والتفكير إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلّها(4). فكأن مداول الكلمة في اللغة يبين أنّ التفكّر عملية يتوجه فيها الذهن إلى شيء ما بغية معرفة كنهه.

وفي المعنى الاصطلاحي، يذكر الراغب الأصفهاني أن "الفكرة قوة مطرقة للعلم الى المعلوم، والتفكر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يقال إلا فيما له صورة في القلب، ونقل عن بعض الأدباء قوله: الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها"(5).

ويرى أبو حامد الغزالي أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة(6). "ومن البين أن هذا التعريف يشير لغة واصطلاحا إلى معنى منهجي، لا إلى معنى المحتوى من الأفكار، كما هو شائع اليوم في الاستعمال بين النّاس"(7). ولم يفرق أبو حامد بين التفكّر والتدبر والتأمل، ورأى أنها عبارات مترادفة على معنى واحد، ليس تحتها معان مختلفة(8). وهو كلام فيه نظر؛ لأن القرآن قد ذكر التفكر والتدبر في سياقات مختلفة، مما يوحي بفرق بينهما.

وفرق بعضهم بين التدبر والتفكر فجعل التدبر تصرفا بالنظر في عواقب الأمور، وجعل التفكر تصرفا بالنظر في الدليل(9).

فالفكر أو التفكر -إذا- عملية ذهنية استنباطية دقيقة المسلك، تتوجه الى قضية أو مسألة للتعرف على حقيقتها، واكتشاف كنهها، أو الوقوف على أبعادها، ولاستيضاح ما كان مجهولا من شأنها. فمحصلة هذه العملية وثمرتها الخلوص إلى علم أو معرفة كانت مجهولة بالنسبة الى الإنسان، ولا يكون ذلك إلا بناء على مقدمات مسبقة معلومة لديه، لتستثمر هذه المعرفة في اتّباع الحقّ واجتناب الباطل.

وقد وردت في التفكر عبارات مشرقة، وأقوال نيرة على ألسنة بعض السلف تدلل على معناه وثمرته وقيمته ؛ فعن عامر بن عبد قيس، قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الايمان التفكر"(10). والتفكر في نظر الحسن البصري" مرآة المؤمن؛ ينظر فيها الى حسناته وسيئاته"(11). بمعنى أن - التفكّر رقيب على العمل. وفسر الإمام مالك بن أنس الحكمة بالتفكر في أمر الله، والاتباع له(12). وعن الشافعي قوله: "استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر". وقوله: "والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة"(13). ولأهميته اختلف الناس في أيهما أفضل: العبادة أم التفكر؟(14).

ووصف الجرجاني التفكّر بقوله: هو تصرف القلب في

معاني الأشياء لدرك المطلوب، وسراج القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكّر فيه فهو في ظلمات يتخبط(15). ووصف بعضهم الفكر بأنّه يد النفس التي تنال بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات(16).

هذه العبارات تكشف عن بعض جوانب عملية التفكر ومعانيها وثمراتها وآثارها ووظائفها، وبذلك كله يتوضح مفهوم هذا المصطلح عند العلماء.

مفهوم "التفكر" في القرآن الكريم

وردت مشتقات الفعل"فكر" في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعا، منها خمسة مواضع في الآيات المدنية، وثلاثة عشر موضعا في الآيات المكية. ولعلّ هذه الكثرة من الآيات في الفترة المكية بالمقارنة مع الآيات المدنية تتناسب مع منهجية القرآن في إثارة ملكة التفكر وتأسيس منهج النظر لصناعة الإنسان، وصياغة تفكيره، وتأهيله لما سيكلّف به من حمل أمانة الشرع، ورسالة التكليف. ولذلك وجدنا الآيات المكية تصدرت بالاستفهام الإنكاري "أولم يتفكروا؟" (الروم، الآية 8، الأعراف، الآية184)، واختتمت بعض فواصلها بـ"أفلا تتفكرون؟" (الأنعام، الآية50)، ولم يرد شيء من هذا الاستفهام في الآيات المدنية، وهذا يتناسب مع تلك المنهجية. ولا شك في أن هذه الحملة في تثوير ملكة الفكر تأتي لتنقض مقولات التقليد الأعمى التي عمت بها الجاهلية الأولى، كما أخبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله: "إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون" (الزخرف، الآية 23).

ولم يرد الفكر في القرآن اسما، بل ورد بصيغ كلها فعلية، فقد ورد بصيغة الماضي مفردا في موضع واحد: "فكّر"، وفي بقية المواضع بصيغة المضارع "تتفكروا"، و"يتفكروا"، و"تتفكرون"، و"يتفكرون". ومعلوم أن الفعل هو كل ما دلّ على حدث، "فحينما نقول: فكّر فهي كلمة تدل على حدث هو الفكر. وتدل على ذات فاعلة نسميها المفكر، وحينما تستخدم في القرآن بهذه الطريقة؛ فكأن الله سبحانه يريد أن ينبهنا الى أن هذا العمل الذهني مرتبط بذات فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكر، وأن الفكر لا ينبغي أن يكون شيئا فيما لا طائل تحته، وفيما لا عمل أو حركة في هذا الكون تُبنى عليه"(17). ولهذا دلالة أخرى، وهي أن الذات لا تُعرف إلا بما يصدر عنها من أفكار، وتمثل هذه الأفكار المعيار الذي ينظر - في ضوئه- إلى قيمة الإنسان. وبقدر إيغاله في التفكير وإنجازه في التقدير يعرف شأنه، ويثبت نشاطه وفاعليته، وكأن الذين لا يفكرون نكرات، كأنّهم خشب مسنّدة.

وإذا تتبعنا آيات التفكر في سورها، فسنجد أنّها عملية تتطلب جهدا ذهنيا عميقا منضبطا يشبه صناعة النحل للعسل، بمعنى ان هذه العملية تقوم على أخذ موضوع للتفكر، ثم تقليبه في الذّهن مرحلة بعد مرحلة، حتى تختمر فتستوي فكرة معينة، ينبني عليها بعد ذلك فهم ما، أو سلوك ما، أوموقف ما. إنّها عملية تضع الإنسان أمام مسؤولياته وواجباته، وليست هي من قبيل المستحيل، أو تكليف ما لا يطاق، كما ان ثمارها لا تقتصر على كونها مجرد عملية نظرية. "واستعمال القرآن للتفكر والتفكير يدلّ على أنّهما في العقليات المحضة، أو في العقليات التي مبادئها حسيات، ...، وأكثر ما استعمله التنزيل في آيات الله، ودلائل وجوده، ووحدانيته، وحكمته، ورحمته"(18).

المطلب الثاني: ضوابط التفكر

تشير الآيات القرآنية الواردة إلى عدة ضوابط ترشد عملية التفكر وتضبط مسارها، هي:

الأول: سلامة الأسس التي يقوم عليها، يبين القرآن أن التفكر إن انبنى على اتّباع الهوى فسينتج تقديرا باتجاه العناد والاستكبار والمكر والخديعة، والتّعامي عن إبصار الحقيقة، يقول سبحانه: "إنّه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر" (المدثر، الآيات18-20)، مما يعني أن التقدير الذي هو نتاج عملية التفكير هو المعيار الذي يعرف به صحة التفكير أو سقمه؛ فإن ارتكز على أسس صحيحة نجم عنه تقدير نحو الحقّ والخير والفضيلة، وإن غلب عليه الهوى نجم عنه تقدير خبيث للأمور، وقلب لموازين الحق، وتزيين للباطل. وهذا ضابط مهم من ضوابط عملية التفكير، أعنى: حسن التقدير الذي ينتج عن عملية فكرية سليمة. وفي مثل حالة الوليد بن المغيرة هذه نجد كل المعطيات التي تقوده الى قناعة مطلقة بالوحي ماثلة أمامه: القرآن المعجزة الكبرى مع أمية النبيﷺ، ولكن إصراره على الكفر والعناد منع وصوله الى تلك القناعة، فظلم نفسه، وجنى على عقله، فمنعه من تقدير صحيح يقود إلى الإيمان في ضوء تلك المعطيات؛ لتغليبه أوهامه وقناعاته الخاصة فضلّل فكره وخدعه أن يصل الى الحقيقة. فالتجرد مطلب ضروري لسلامة التفكير. وعند المقارنة بين تفكير يقوم على كفر، وتفكير يقوم على إيمان نجد الإيمان يوصل إلى تقدير صائب: "ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار" (آل عمران، الآية 191). بينما يستحقّ التفكير الذي يوصل إلى تقدير خاطئ اللعن: "فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر" (المدثر، الآيتان 19-20).

الثاني: التركيز، ويلمح هذا الضابط من خلال توجيه القرآن، وهو أن التفكير عملية تتطلب التركيز والاستغراق

حتى تتم بنجاح بعيدا عن المؤثرات والصوارف الخارجية؛ ولذلك فهي تتطلب عددا محدودا من المتفكرين يتراوح بين الواحد والاثنين، قال تعالى: "قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا" (سبأ، الآية 46). قال الزمخشري: "أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتّباع هوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح، والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه. وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم. والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول. ومع ذلك يقلّ الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمح إلا نصرة المذهب" (19). قال ابن عاشور: "وقدم "مثنى"؛ لأن الاستعانة أعون على الفهم، فيكون المراد دفع عوائق الوصول الى الحقّ بالنظر الصحيح الذي لا يغالط فيه صاحب هوى، ولا شبهة، ولا يخشى الناظر تشنيعا ولا سمعة، فإن الجماهير إذا اجتمعت لم يخل مجتمعها من ذي هوى وذي شبهة وذي مكر وذي انتفاع... فللسلامة من هذه العوائق والتخلّص من تلك البوائق الصادة عن طريق الحقّ قيل هنا: "مثنى وفرادى"، فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يرض لها بغير النصح، وإذا خلا ثاني اثنين فهو إنما يختار ثانيه أعلق أصحابه به وأقربهم منه رأيا، فسلم كلاهما من غشّ صاحبه"(20).

الضابط الثالث: اصطحاب ذكر الله، وهو ضابط مهم لسلامة التفكير؛ وذلك ان الإيمان في عملية التفكير قد يكون نتيجة تؤول إليها هذه العملية. وقد يكون الإيمان منطلقا، ولذلك فالخلق كله مطالب بالتفكر. يقول سبحانه: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض" (آل عمران، الآيتان 190-191). فهم الذاكرون المتفكرون. وهم أرقى فئة مؤمنة بتفعيلها لهذه الملكة، فاستحقّت أن تكون القدوة والمثل لسائر المؤمنين. فعملية التفكير لا بد من أن تكون مصحوبة بذكر الله تبارك وتعالى. "إن التفكر هنا يشمل الجانب الفكري والعاطفي والانفعالي والإدراكي للمؤمن، أي انه يشمل جميع أنشطته النفسية والمعرفية والروحية، ومن الصعب أن يتصور الإنسان ذاكرا لله قليل التفكرفي مخلوقاته، أو يكون متفكرا في خلق الله لا يعد من الذاكرين"(21). وكما ان عملية القراءة للوجود تكون باسم الله تعالى "اقرأ باسم ربك" كذلك فإن عملية التفكير تكون مصحوبة بمعية الذكر الخالص لله تعالى. إن الفكر إذا لم يتنور بنور الوحي وهديه فهو في ظلام دامس"وإذا لم تكن سويداء القلب في فكرة بيضاء ناصعة، فحصيلة الدماغ لا تكون علما وبصيرة، فلا عقل ولا قلب"(22)؛ "وذلك لأن تنوير العلوم الدينية للقلب كونها محصول الوحي، وهو نتيجة العلاقة بين الوحي والعلم. فالعلم المنور هو المعرفة التي ينفذ منها الوحي بالإيمان. وهذا المستوى الذي يجب أن تصل إليه جميع أنواع المعرفة ضمن الإطار الإسلامي. وضد هذا العلم هو الجهل، ومهما حصل الشخص على المعرفة، ومهما كان في أعلى مستويات المعرفة، إذا لم يصل إلى هذا المستوى العلمي، فإن معرفته متساوية مع الجهل، وتضر بالإنسانية"(23). لقد شبه الأستاذ الإمام محمد عبده الذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقها فتبقى أرواحهم محرومة من لذّة معرفة الله، شبههم بمن يطبخ طعاما شهيا يغذّي به جسده، ولكن لا يرقى به عقله، يعني ان الفكر وإن كان مفيدا لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذّكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا يكمل إلا بالفكر(24)، وهذا ضابط آخر لعملية التفكير السليم. ولأهمية هذا التفكر، عده بعض العلماء أفضل العبادات؛ لأنّه المخصوص بالقلب، والمقصود من الخلق(25).

الرابع: دقّة المسلك والمأخذ، ويلمح هذا الضابط من خلال الاستقراء الموضوعي للآيات الواردة في التفكير حيث ينبئ عن أن عملية التفكر لا تتم إلا فيما دقّ مسلكه، وكان الوصول الى كنهه يتطلب تركيزا ذهنيا عميقا لمعرفة أسرار الخلق وسنن الحياة وإعجاز القرآن. وضرب القرآن الكريم الأمثال في بعض هذه الآيات، كما ورد في قوله تعالى: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" (الحشر، الآية 21)، ولا شك في أن ضرب الأمثال يتطلب ملكة قوية في التفكير من أجل الوقوف على أسرارها، ومعرفة مغزاها وما ترمي إليه من دلالات.

الخامس: عظمة قضاياه، من ضوابط التفكر توجهه إلى قضايا الإنسان الكبرى -أولا- مما هو في عالم الشهادة، "ويتفكرون في خلق السموات والأرض"، أي: في الخلق لا في الخالق، وأن لا يكون هذا التفكير في قضايا عالم الغيب لمعرفة كنهها وحقيقتها وماهيتها كمعرفة مواصفات عسل الجنة مثلا، أو خمرها، أو معرفة طبيعة ماء حوض النبي عليه الصلاة والسلام، أو غير ذلك مما ذكر في نصوص القرآن والسنّة مما يتصل بعالم الغيب. قال الألوسي: "والذي

عليه أئمة التفسير أنّه سبحانه إنما خصص التفكر بالخالق للنهي عن التفكر في الخالق"(26). وقال الثعالبي: "وإنما التفكر وانبساط الذهن في المخلوقات وفي أحوال الآخرة"(27)، ولذلك نجد في ضوء آيات القرآن أن التفكير لا يصرف في كل قضية أو شأن إلا إذا كانت هذه القضية مما يستحق التفكير، فلا خير في أن نفكّر في ذرة، دون معرفة خالقها ومنشئها، فتحديد عملية التفكير بهذه الضوابط يجعل منها عملية محكمة راشدة بعيدة عن السطحية والغلو والتطرف.

المطلب الثالث: أساليب القرآن في الحثّ على التفكّر

سلك القرآن في استثارة تفكير الإنسان أساليب عديدة توصلا إلى وقوفه على أمهات القضايا التي تتوقف عليها حياته، والتي تؤثر سلبا أو إيجابا في تقرير مصيره، كقضية الإيمان والمعاد والنبوة ونظرته إلى الكون والحياة وإعمارها. وهذه الأساليب، هي:

الأول: الاستفهام الإنكاري، وهو أول هذه الأساليب وأهمها، فقد ورد في ثلاث آيات، في قوله تعالى: "قل هل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون؟" (الأنعام، الآية 50)، التي وردت بمناسبة" تصحيح التصورات الجاهلية عن الأنبياء والرسل، بعدما عبثت بها جاهليات العرب وغيرهم من الأمم حولهم، فابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة، وحقيقة الوحي، وحقيقة الرسول، ودخلت بها خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة، واختلط الوحي بالجن والجنون، وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب، وأن يأتي بالخوارق"(28). فالتفكير هنا أمام خيارين: إما أن يقبل ما رسمه القرآن من تصور للنبوة، وهذا هو البصير. وإما أن يصر على أن النبوة ضرب من السحر والكهانة والشعوذة، وهذا هو الأعمى. وهناك فروق دقيقة المسلك بين النبوة وغيرها ينبغي للتفكير البصير أن يصل إليها ليكون راشدا.

والآية الثانية وردت في السياق نفسه، في سياق تبرئة النبوة مما علق بها من مقولات خاطئة، وتصورات باطلة. يقول سبحانه: "أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنّة؟ إن هو إلا نذير مبين" (الأعراف، الآية 184). فلا يمكنه أن يأتي بالخوارق من تلقاء نفسه، ولماذا يفترض أن يأتي بها إرضاء لشهوات القوم؟ ولم لا يكون التفكّر في حقيقة ما جاء به النبي من الهداية والرشاد؟ أيعقل أن يكون بالنبي جنون ثم لا يستطيع العقلاء مجاراته في ما جاء به من الحقّ في أفصح كلام وأبلغه؟ كيف يستويان؟ إن كل تفكير يخلع على النبوة أوصافا لا تليق بها هو موضع إنكار واستهجان! فلا بد من مراجعة للنفس لتصويب منهجها في التفكير.

وعدت الثالثة إلى التفكير في النّفس وآيات الله تعالى فيها، يقول سبحانه: "أولم يتفكروا في أنفسهم؟" (الروم، الآية 8). فالآيات الثلاث تحفّز على التفكير، وتبعث عليه في قضايا ذات صلة بالإنسان على صورة من التهديد والوعيد الذي يفيده الاستفهام الإنكاري، لنفض غبار السكون والجمود والبلاهة عن النفس فتنشط للتفكر. بهذه الإثارة يحفّز القرآن ويدعو إلى التفكّر.

الثاني: التذكير بالنعمة، فالتذكير بالنعمة يعد من أقوى الأسباب على بعث ملكة التفكير من عقالها؛ نظرا للصلة التي لا يمكن إنكارها بين الإنسان وهذه النعم، قال تعالى: "ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون" (النحل، الآية11). فلا بد من أن يكون الدافع هنا إلى التفكير هو الحياء من كرم المنعم المتفضل وعظيم عطائه. فلحظة خجل من النفس تدعو إلى التأنّي والحذر من تقدير خاطئ مبني على عملية التفكير، إن هذا الخطأ المتعمد يدفع إلى زوال هذه النعم والآلاء، ويمحق البركة فيها.

ومع خصوصية النعم الوارد ذكرها في الآية السابقة، إلا أن هناك نعما مهدت لعيش آمن للإنسان يعد التفكير بها من الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في إثارة هذه الملكة، يقول سبحانه:"وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النّهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الرعد، الآية 3). فالتفكير بما هيأ الله لعباده من سبل الراحة يوصل إلى معرفة واهب هذه النعم ومبدعها على أروع صورة. وإذا كانت الأرض منبسطة فلينظر الفكر لو كانت وعرة هل تستقيم الحياة؟ وإذا كانت الجبال أوتادا للأرض فلينظر الفكر هل تستقيم الحياة على أرض مضطربة كأمواج البحر؟ وكيف للحياة أن تستمر لو انعدمت الزوجية في نظام الكون؟

ومن التذكير بالنعمة كذلك قوله تعالى: "ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون" (النحل، الآية 69). وفي إخراج العسل من بطون النحل قدرة إلهية تستوجب التفكير في دقائق صنع الله تبارك وتعالى. ولأن عملية إخراج العسل تجري عبر مراحل دقيقة ينتج عنها تحويل رحيق الأزهار الى عسل مصفّى فيه شفاء للنّاس جعل القرآن هذه النعمة موجبة للتفكير ببديع صنع الله تعالى.

الثالث: نصب القدوة والمثل، ومن أساليب القرآن في بعث التفكير وإثارة هذه الملكة في الإنسان أن الله تبارك

وتعالى نصب القدوة والمثل لمن أراد التفكير. لقد خلع على أهل التفكر في آياته بأنهم "أولو الألباب"؛ لأنّهم تفطنوا إلى ما لايتفطن إليه غيرهم من إعمال فكرهم في خلق السموات والأرض، وأدركوا ما لم يدركه غيرهم من حكم هذا الخلق وأسراره. ولهذا التميز عندهم وصفهم الله سبحانه بأنّهم" أولو العقول الخالصة عن شوب الهوى"(29). وهم أهل التأمل في الأسرار والحكم، وهم منارة يهتدي بها السائرون من حيث ان التفكر فعل لا ينقطعون عنه بحال من الأحوال، ففعل "يتفكرون" دالّ على التجدد والاستمرار. وفي الإشادة بهم، والثناء عليهم، تحفيز للنفوس للالتحاق بركبهم، يقول سبحانه: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنّهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض" (آل عمران، الآيتان 190-191). لقد استحقّ أولو الألباب البشرى والثناء بسبب مبادرتهم إلى الأعمال الصالحة، وكون التفكّر صفة من صفاتهم، وكونهم المنتفعين بهذه الآيات العظيمة، يقول سبحانه: "فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب" (الزمر، الآية 18).

الرابع: الإثارة والتشويق من الأساليب التي سلكها القرآن في تفعيل ملكة التفكير؛ ذلك ان الله تعالى بثّ آياته في كتاب الكون، وفي كتاب الوحي كذلك، وجعلها علامات هداية في الأنفس والآفاق، ومنارات إيمان وهدى لمن أراد أن يصل إلى حقائق هذا الوجود. ولا يحول دون التفكير بهذه الآيات شيء، ولا يمنع من التفكير بها حاجب، وليس بينها وبين الإنسان حاجز، فضلا عن إثاراتها الذكية، ومحفزاتها التي تشحذ النفوس والأذهان، يقول سبحانه:"الله يتوفّى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الزمر، الآية 42). فهذه آية ناطقة بنفسها، تجر النّفوس إليها جرا لتقف عندها، وتتفكر في شأنها وأمرها؛ لتكون لها دليلا يقودها إلى أن البعث من اليقظة كالبعث من الموت، فالتشابه بينهما كبير، ولكل إنسان في كل يوم قيامة، ألا يبعث هذا الأمر على التفكر في شأن النوم واليقظة؟ بلى!

وقد استثارالقرآن الناحية الجمالية الفطرية في الإنسان، والصورة الرائعة لآياته سبحانه في الوجود(30) يؤكد هذا قوله تعالى: "وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الرعد، الآية 3). فنظرة متأنية متفكرة تبعث في النفس إحساسا كبيرا بهذا الجمال الخلاب لهذا البستان الكوني الجميل في حركته وتعاقب ليله ونهاره.

الخامس: ضرب المثل، وضرب المثل من الأساليب القرآنية التي تشحذ النفوس وتدفعها إلى التفكير في معطيات تلك الأمثال، فقد أحضر التفكير في دائرة المثل في عدة آيات، فقد ضرب المثل لهذا الكتاب العظيم. ففي سياق الحديث عن كتاب الوحي في قوله تعالى": لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلهم يتفكرون" (الحشر، الآية 21). وضرب المثل للذي يكذّب بهداية هذا الكتاب العظيم (الأعراف، الآية 176). وتطلب ذلك إعمال الذهن للوصول إلى الحقّ.

واستدعيت ملكة التفكر لتنشط في ما ضرب للحياة الدنيا من مثل في قوله تعالى:"إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل النّاس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" (يونس، الآية 24). ولا شك في أن اكتشاف العلاقة بين المشبه والمشبه به أمر دقيق المسلك، وليس الوصول إليه ممكنا إلا بعد تفعيل ملكة التفكر عنده، وتنشيطها للوقوف على سرعة انقضاء هذه الحياة، وما يترتب على ذلك. وضرب المثل للذي يرائي في إنفاق المال، ويتبع ما أنفق منّا وأذى (البقرة، الآية 266).

المبحث الثاني: ميادين الفكر وموضوعاته

نجد من خلال الاستقراء الموضوعي لآيات التفكر المكية أنّ موضوعاته قد تعددت وتركزت حول قضية محورية تتمثل في الوصول الى حقائق الإيمان المطلقة، والتصورات الحق؛ فقد اصطحبت التفكّر إلى ميدان كتاب الوحي، لتفهم أسرار إعجازه، واستنباط أوجه هداياته. واصطحبته إلى ميدان السنن الإلهية للتعرف على قوانين الله وسننه في الأنفس والآفاق؛ لصياغة الحياة وضبطها في ضوء هذه السنن. كما فتحت المجال واسعا للتفكّر في شأن الحياة الدنيا بوصفها محطة يسرع الإنسان فيها الخطى إلى مصير خالد، وبقاء أبدي. فهذه كلها وردت في آيات مكية اصطحبت التفكر إلى ميادين ينبغي أن يكون فيها تصور الإنسان صحيحا لا شائبة تشوبه من ملوثات الشرك والوثنية، والتصورات الوضعية. وكأن الآيات المكية تريد أن ترقى بالناس إلى هذا

المستوى من التفكير، من حيث إخراجهم من التفكير بسفاسف الأمور ليقفوا على أمهات حقائق كلام الخالق سبحانه، وأسرار فعله في الوجود.

أما الآيات المدنية فقد أكدت بعض موضوعات الآيات المكية، وأثارت الفكر في ميدان التشريع للوقوف على مقاصده وأسراره وحِكَمه في تحريم الخمر والميسر، وإنفاق فضل المال. كذلك أثارت الفكر مرة أخرى في سياق ضرب المثل للقرآن الكريم فهو كتاب الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبعد أن نجحت منهجية القرآن الكريم في جعل التفكر طبعا لفئة موصوفة بالعقول النيرة، وبعد أن قضى على نزعة التقليد في مجتمع التنزيل، بعد ذلك كله جاء ثناء القرآن على أولي الألباب. وبذلك تتحقّق أهداف القرآن وتنجح منهجيته في نبذ ظاهرة التقليد. ولنستعرض هذه الميادين بشيء من التفصيل.

الميدان الأول: كتاب الوحي

استدعي الإنسان ليقف متفكرا في ميدان كتاب الوحي ورحابه؛ ليفعل فيه نشاطه الذهني، ويبرز فيه جهده الفكري، وليتمم به إنسانيته، ويرقى به إلى ذروة الكمال. إن من أهم أوجه هذا النشاط للتفكر يتمثل في الكشف عن أسرار هداية هذا الكتاب المعجز الذي بنى التصور الحقّ الذي يستند إليه الإنسان في نظرته إلى الله تعالى الخالق، ومفردات الوجود المخلوق، أعني: الإنسان والكون والحياة، وهي من القضايا الدقيقة التي تدعو الفكر لسبر أغوارها، فإن هذا القرآن هو كتاب البيان الأوحد في كل ما تتطلبه هذه الحياة من حقائق العقيدة وأصول الشريعة، ففي سياق الحديث عن وحي الله إلى الأنبياء السابقين، يقول سبحانه: "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون" (النحل، الآية 44). فليتصور الإنسان كيف تصبح الحياة بدون هداية هذا القرآن؟ فما الحلال وما الحرام؟ وما الحقّ وما الباطل؟ وما الخير وما الشر؟ وما الإيمان وما الكفر؟ وأنّى للنّاس أن يتبينوا كل ذلك؟ وهذا يعني أن كل آية من آيات الهداية القرآنية جاءت بالتمام والكمال لتسد فراغا كبيرا في حياة البشرية، حتى أصبحت ضرورة من ضروراتها. إن القرآن الكريم هو عقل الأرض، فليتصور ما سيلحق بالأرض من جنون إذا غاب القرآن عن ترشيدها وتوجيهها.

إن الآية تبين مسائل ذات مساس بحياة النّاس كلهم. فالسياق العام في الحديث عن وظيفة الأنبياء وما أرسلوا به إلى النّاس. "إن الأنبياء من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص. وإن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن سائر الكائنات"(31). وهنا كان فرضا على النفس أن تتفكر في أهمية بعثتهم، وما جاؤوا به من الوحي. ولينظر الإنسان هل يستطيع أن يستعيض عنه بعقله؟ أم هل يستطيع أن يتنبأ بمقاصد حياته، أوبنهاية الكون، وهل هذا من اختصاصه ؟ إن هناك أمثلة - لا حصر لها في أرض الواقع - شاهدة على عجز كل الديانات والفلسفات التي حاولت أن تتنبأ أو تتكهن بمعرفة أسرار الكون والحياة الإنسانية، فلم تزد الإنسان إلا حيرة وضلالا؛ ولذلك فإن من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم ذلك البيان المتميز في كشف أسرار الحياة الإنسانية. وكشف أسرار الكون، وتعريف الإنسان بنفسه وبحياته ومستقبله ومصيره، هذه القضايا هي شؤون إنسانية جاء القرآن الكريم ليبينها للناس جميعا، وهذه القضايا كلها قد وضعها القرآن على بساط الفكر. إنّها ذات مسلك دقيق يتطلب إعمال ملكة التفكر بتأن وروية ليصل إلى صدق ما أخبر به القرآن الكريم. فهذا جزء من ميدان التفكر في كتاب الوحي بسطه القرآن للمتفكرين المنتفعين بما وهبهم الله من وسائل الإدراك.

وهناك جزء آخر من هذا الميدان يتمثل في اصطحاب التفكّر إلى داخل النص نفسه، لا ليقف عند ظواهر حقائقه ليكون عالما بها، وليعيش في النّور بعد الظلام، بل ليتعمق في تلك الحقائق فتكتسي بها نفسه هيبة وجلالا، وعظمة وجمالا، وخشية وخشوعا لله رب العالمين منزل هذا القرآن، لقد ضرب الله المثل لآيات الهداية القرآنية، فكانت موضوعا للتفكر، يقول سبحانه: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكرون" (الحشر، الآية 21). والسبيل إلى أن تزهو النّفس بهذا الخشوع وهذه الهيبة هو التفكر في آياته، وما أنزل الله تعالى فيه، فالتفكّر وسيلة رئيسة تنتج ثمارا يانعة من تلاوة القرآن الكريم. يقول أبو حامد الغزالي: "لا يوجد أنفع من قراءة القرآن بالتفكر؛ فإنّه جامع لجميع المقامات والأحوال. وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء، والصبر والشكر، والمحبة والشوق، وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن الصفات المذمومة. فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكّر فيها مرة بعد أخرى، ولو مائة مرة"(32).

لقد تنزل القرآن على ما هو ألين من الجبل، تنزل على قلب الإنسان، ومع ذلك يتبلّد إحساس القلب حتى يصبح عديم

التأثر بآيات الكتاب العزيز. إن تحصيل الخشية والخشوع أمر دقيق المسالك، ويتطلب عملية دقيقة عميقة في التفكر، من أجل الوصول إلى هذه الحقائق. ومن عجيب أسرار هذه الآية أنّها وردت في سورة الحشر التي كان مقصودها الحديث عن يهود بني النضير وإخراجهم من ديارهم، فما آلوا إلى هذه العاقبة والمصير إلا بجهلهم وسوء صنعهم، وتعطيلهم ما وهبهم الله تعالى من وسائل الإدراك. لقد أخبر القرآن عن اليهود عامة بقساوة قلوبهم، في قوله سبحانه: "ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة" (البقرة، الآية 74). ومع ذلك فإن القرآن لو تنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله تعالى. أما أولئك فلم يخشعوا، ولم يستجيبوا للهداية. ولو كانت ملكة التفكير عندهم فاعلة لعرفوا ما يضرهم وما ينفعهم، ولما كتب عليهم اللعن على ألسنة الأنبياء، ولما كان مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا.

الميدان الثاني: السنن الإلهية في عالم النفس

استدعي الإنسان ليقف متفكرا في ميدان السنن الإلهية في عالم النفس الإنسانية. واستنهض القرآن ملكة التفكير لديه؛ ليقوم بإدراك ما خفي على الآخرين فهمه مما دقّ مسلكه، ولطف مأخذه متعرفا على أسراره. لقد بين الله سبحانه هذه السنن بوصفها ميدانا واسعا للتفكير، وبسط فيها آيات هدايته، ودقائق صنعته، وحكمة خلقه، وآثار فعله.

لقد وجه القرآن الكريم الإنسان إلى النظر في مسيرة حياته من قبل أن يكون نطفة إلى حيث ينتهي به الحال في مستودع عالم البرزخ، بل إلى أن يستقر الإنسان الصالح في الجنّة، والإنسان السيئ في جهنم. وأثار -لأجل أن يتعرف على حقيقة نفسه - وسائل الإدراك كلها. لكن الذي يعنينا هنا وسيلة واحدة هي وسيلة التفكير التي استدعيت للوقوف عند محاور رئيسة في الحياة الإنسانية.

إن النفس الإنسانية انطوت - في خَلقها- على كثير من الأسرار التي لا تنقضي عجائبها، وقد أرشد الله سبحانه الإنسان إلى معرفة هذه الأسرار، فقال: "أولم يتفكروا في أنفسهم؟" (الروم، الآية 9). والمعنى "ألم يشغلوا قلوبهم الفارغة عن الفكر بالتفكر؟ وقوله "في أنفسهم" ظرف للتفكر"(33). ويجوز بعضهم كونه مفعول "يتفكروا"، بمعنى أولم يتفكروا في أمر أنفسهم، فالمعنى حثّهم على النظر في ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع صنع الله تعالى(34). ويقارب هذا المعنى قوله تعالى:" وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟" (الذاريات، الآيتان 20-21).

ولقد أسس القرآن الكريم قواعد مهمة في الحفاظ على الإنسان وضروريات حياته، وخاصة فيما يتعلق بالعقل والمال وهما من قوام الحياة ودعائمها الرئيسة، فدعا إلى حفظ العقل وحفظ المال، واستدعى التفكير ليعمل في هذه الدائرة؛ ليعرف ما ينفعه وما يضره، وليعلم أن ما حرم عليه ليس إلا لضرر، وما أمر به ليس إلا لنفع وخير، يقول سبحانه: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة" (البقرة، الآيتان 218-219). فإنفاق المال من أجل الاعتداء على العقل فيه مضرة، وإهانة لمعلم مهم من معالم تكريم الإنسان. وإن إهدار المال في طريق الميسر جناية مضاعفة لإضرارها الخطير بالمال؛ إذ لا جهد ولا نفع يقابله. إن القرآن في هذا السياق يشن حملة شعواء على الخمر، بعد أن كانت تتمدح بها أشعار الجاهلية. إنّه يريد بهذا الإعلام أن يقلب النظر والتصور عن الخمر، فقرر أن فيها إثما كبيرا ولم يكن ذلك مما يخطر ببال أحد. كذلك حين يؤخذ المال بالباطل، ويسرق من الآخرين علانية وعلى مشهد منهم، فإنّه يولّد مشاعر العداء والبغضاء بين المتعاطين به. قال تعالى: "إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟" (المائدة، الآية 91). فليفكر الإنسان في سر تحريمهما. قال ابن عاشور: "ولا يخفى أن الذي يصلح للتفكر هو الحكم المنوط بالعلّة، وهو حكم الخمر والميسر، ونشأ عنه قوله "ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو"(35).

إنّه لا يصلح لإدارة المال واستثماره غير هداية الوحي، فأن ينفق المال في كل ما يحقّق المصلحة للإنسان، فيعان به الفقراء والمساكين، وتشيد به المصانع، وتحرث به الأرض وتزرع، وتعد به كل مظاهر القوة وآلة الحرب والقتال، فإذا صلحت أمور الدنيا بالمال، فإن آخرة النّاس ستكون صالحة. إن الفكر يجب أن يعمل في هذه الدائرة ويكون فيها فاعلا نشطا، وإن النفس لا بد من أن تستجيب لهذا القانون الإلهي فتقف عند حدوده؛ لأن أي إخلال أواعتداء أو تجاوز على هداية الوحي بشأن المال سيبعث الفوضى في حياة النّاس الاقتصادية والاجتماعية.

وفي سياق الحديث عن تعلّق النفس بالمال وإنفاقه، يبين القرآن سنّة إلهية أخرى، يقول سبحانه: "أيود أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" (البقرة، الآية 266). روى البخاري أن عمر بن الخطاب قال

يوما لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت "أيود أحدكم أن تكون له جنّة"؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجلّ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله"(36)، أي: أفسدها وأبطلها وأحرقها. فتقلّب النفس ووقوعها تحت تأثير المال طبع فيها، وهو مدعاة للعاقل الى أن يتفكر فيما يصلح نفسه وفيما يفسدها.

هذا القانون في النفس الإنسانية يحذّرها من إبطال أعمالها الصالحة وإفسادها سواء أكان بالاستجابة لهوى النفس كما يظهر في الحديث السابق، أم كان بالرياء والسمعة وإتْباع الإنفاق المن والأذى، كما يرى ابن عاشور بقوله: "ضرب الله هذا مثلا لمقابل مثل النفقة لمرضاة الله والتصديق، وهو نفقة الرياء، ووجه الشبه هو حصول خيبة ويأس في وقت تمام الرجاء، وإشراف الإنتاج، فهذا مقابل قوله: "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله..."(37). ولما كان الرياء دقيق المسلك، خفي المظهر، لا يطّلع عليه أحد إلا الله تعالى، ونفس صاحبه، كانت ملكة التفكير هي المعنية بإدراك هذا القانون الإلهي في النفس الإنسانية، لقد كتب الله تعالى أن الرياء يحبط العمل، فأي تجاوز لهذا القانون ستكون عاقبته خسرا. إن المنفق على هذا الحال لا يريد ما عند الله ولا يسعى إليه، بل يسعى إلى حاجة في نفسه، يسعى إلى ثناء وشهرة، يسعى إلى مجد دنيوي، فكيف يصل هذا العمل إلى الله تعالى"إن عليه أن يتفكر في العواقب، فيضع نفقته في المواضع التي يرضاها مع الإخلاص، وقصد تثبيت النفس حتى لا يستخفها الطيش والإعجاب، فيدفعها إلى المن والأذى"(38). فالإخلاص من ضرورات الاستقامة، والنجاة في الحياتين.

ويوجه القرآن الكريم الإنسان للتفكير في سنّة أخرى من سنن الله في النفس الإنسانية. إن النفس حين تنسلخ من طبيعتها، وما جبلت عليه من فطرة تعشق التوحيد وتؤمن بالحقّ، تنقلب الى نفس شيطانية تؤثر الهوى، وتنبذ الحقّ، فتفقد بذلك إنسانيتها وكرامتها، إن القانون الإلهي قد قرر ان النفس الإنسانية لا يصلح لها إلا التصديق والإيمان بكل ما أخبر الله تعالى به. وإن تجاوز ذلك القانون وتلك السنّة بالتكذيب والكفر سيؤدي بالإنسان إلى الهلاك والخسران، قال تعالى: "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون" (الأعراف، الآية 176). فليتفكر الإنسان في أوجه هدايته، وليفعل فيها نشاطه؛ ليدرك ويعي أن ما أخبر به الوحي حقّ لا مرية فيه. فآيات الهداية التي هي موضوع رئيس من موضوعات التفكر قد تحققت آثارها الإيجابية في الحياة. والانسلاخ من هذه الآيات قد تحققت آثاره السلبية كذلك؛ بهلاك المكذبين من الأمم والأقوام، وتلك سنّة إلهية جارية في الخلق الى قيام الساعة لا تتخلّف ولا تتبدل.

لقد شُبه الضال بالكلب، وشُبه شقاؤه واضطراب أمره بلهث الكلب حين تركه، وشُبه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحقّ عند مجيئه بلهث الكلب في حال طرده وضربه(39)، وهي حالة تستدعي التفكير العميق في ذلك الذي يبصر آيات الحقّ والهداية والإيمان ثم يعرض عنها، ليرث بعد ذلك حالة دائمة من الشقاء والنّصب والإعياء. وفي قوله تعالى: "فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون" تأكيد على أن في القصص" تفكرا وموعظة فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنا عظيما في اهتداء النّفوس بها، وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظيربالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس"(40). "وإن الفارق الحقيقي بين الإنسان المدني والإنسان الوحشي هو التفكر"(41).

ويوجه القرآن الفكر الى سنّة إلهية أخرى في عالم النفس ونظامها الفطري هي سنّة الزوجية التي لا تقتصر على الإنس والجن فحسب، بل تشمل النظام الكوني بأسره. قال تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الروم، الآية 21). ولعلّ ورود هذه الآية في سورة الروم يدلّ بوضوح على أن الروم اليوم هم أبعد الناس عن التفكر في هذا النظام الفطري، ولذلك استعاضوا عنه بنظام إباحي أورث أمم الأرض أمراضا استعصت على العلاج كمرض نقص المناعة (الايدز) الذي قدرت ضحاياه في القرن الماضي بأربعين مليونا من البشر. ولذلك وجه القرآن النفس إلى التفكر في هذا النظام الذي هو بحق نعمة من نعم الله على الإنسان. وغرض هذا التوجيه الوصول الى قناعة أن هذا النظام هو أقوم سبيل لضبط العلاقة الاجتماعية بين الرجل والمرأة المتمثلة في الزوجية المتكافئة المتكاملة المتعاونة.

الميدان الثالث: كتاب الكون والسنن الإلهية فيه

استدعي الإنسان -كذلك- ليقف متفكرا في كتاب الكون الذي بسطه الله تعالى وبثّ فيه آيات بينات محكمات، وأودع فيه أسرار خلقه، وبدائع صنعه، وجعله ميدانا فسيحا للمتفكرين. يقول سبحانه: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنّهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض" (آل عمران، الآية 191). فالتفكّر يكون في الخلق المشاهد للإنسان بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، سواء في مظاهر الخلق العلوي، وهي السموات أو كل فضاء يمكن أن يحلّق فيه الإنسان، أو في مظاهر الخلق السفلي وهي الأرض وما فيها من دلائل وبينات ترشد الإنسان إلى إدراك أسرار الخلق وحكمها. ومن أسرار هذه الآية أنّها ذكرت التفكر في الأمر البعيد من الإنسان أولا، وهي السموات، ثم ذكرت الأرض، ولعلّ ذلك من أجل أن لا يقع الإنسان أسيرا لكل ما هوقريب بين ناظريه؛ لأن عادة الإنسان الاشتغال بما بين يديه، وفي هذا تربية لأن يكون الإنسان بعيد النظر بعد السموات. إن التفكر الذي يصل إلى هذه الآفاق معدود في سلك العبادة الراقية، قال القرطبي: "فعطف تعالى عبادة أخرى على إحداهما بعبادة أخرى، وهي التفكر في قدرة الله تعالى ومخلوقاته، والعبر الذي بثّ ليكون أزيد في بصائرهم"(42).

وفي سياق إرشاد الفكر إلى كتاب الكون الفسيح، والقوانين الجارية فيه، يقول سبحانه: "وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الرعد، الآية 3). والتفكر هنا يتوجه الى معرفة بعض خواص أسرار الوجود، فامتداد الأرض وانبساطها، وارتفاع الجبال وشموخها، وبعث الروح في الحياة بما جعل فيها من أنهار، والزوجية التي هي سنّة إلهية انتظم بها كل ما في الوجود من حي وغير حي، وتقلّب الليل والنهار على صورة من الغشيان، كل أولئك أمور في غاية الدقة، وتتطلب قدرا كبيرا من التفكر، وإعمال الذهن، وتصرف القلب في هذه "السور" البديعة من كتاب الكون.

ويوجه القرآن الإنسان ليتفكر في صفحات كتاب الكون، ويستدعيه للنظر والتفكر في ما سخّر الله تعالى له من سنن هي مظهر نعمة على الإنسان تستوجب شكر المنعم جلّ جلاله، قال تعالى: "وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الجاثية، الآية 13). فكل المسخّرات في الوجود تسير على قوانين ثابتة، فعليه أن يكتشف هذه القوانين والعلاقات بينها.

لقد كان تسخير الكون للإنسان لأجل وجوده. وقد بني الكون بالقدرة الإلهية على قوانين كمية وكيفية تناسب تماما الكيان الإنساني في وجوده ابتداء، فكأنّما هو صنع لاستقبال الإنسان، فتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إعداد الكون كميا؛ ليتناسب مع وجود الإنسان، وتسخير الليل والنّهار إشارة إلى إعداده كيفيا لذلك. كذلك سخّره لاستمرار الحياة الإنسانية؛ فقوانين الكون مذلّلة لاستقبال الوجود الإنساني ولحياته وسيرورتها، ولتحقيق غايتها. كما ان الكون مسخّر للاستيعاب المعرفي، فقد بني الكون على قوانين وضوابط ثابتة لا يداخلها الاضطراب والفوضى، وهذه القوانين هي أساس العلم به؛ إذ تتيح للفكر أن يرصد الظواهر الكونية، ليتمكن من النفاذ إلى القوانين التي وراءها، لاستيعابها وتمثّل دلالاتها، وبذلك تكون السنن الكونية الثابتة بجعلها مظهرا من مظاهر التسخير الإلهي طريقا للعلم بحقائق الكون في ذاته وطريقا للعلم بدلالات النظام الكوني على الوجود الغيبي، وعلى قمته وجود الله تعالى. إن هذا الاستيعاب المعرفي المتأتي بتسخير الكون بتذليله لنظام ثابت هو الأساس في حياة الإنسان، من حيث سعيه الخلافي؛ إذ الخلافة في جانبيها الروحي والمادي لا تتأتى إلا بهذا الاستيعاب المعرفي الذي يمكّن من معرفة الله ومن عمارة الأرض معا(43).

إن هذه الآية جعلت التسخير مقترنا بالتفكر كما في فاصلة الآية، بينما ختمت فاصلة بعض آيات التسخير بالتعقّل ؛ لأن هذه الآية "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض"طلبت من الإنسان أن يحلّق في فضاء السموات، وأن يغوص في أعماق الأرض بفكره. ولما تفيده "ما" من الإبهام، فإنّها تدفع الإنسان إلى التعمق في اكتشاف أسرار ما في السموات وما في الأرض، فهي شاملة للباطن المخفي، وللظاهر المشاهد من أسباب التسخير؛ لاستثماره في نفع الإنسان.

إن التفكر يشعر الإنسان بقيمته ووظيفته في الحياة، فلم يشأ الله أن يمهد العالم تمهيدا كاملا، ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية؛ لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضر والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحديا واستجابة ودأبا وإبداعا، ولأنّه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية المطلقة، ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمة الإنسان على الأرض أساسا(44).

الميدان الرابع: الحياة الدنيا

استدعي الإنسان مرة رابعة ليقف متفكرا في سرعة انقضاء الحياة الدنيا، وما يستتبع ذلك من آثار إيمانية وحقائق متصلة بالوجود الإنساني. ولقد ضرب القرآن مثلا -لما

للأمثال من أثر في إيصال المعنى بأوجز أسلوب وأبلغ عبارة - لسرعة زوال الحياة الدنيا وانقضائها، ففي قوله سبحانه:" إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل النّاس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" (يونس، الآية 24). وهذه الظاهرة تحدث على مستويين قد تحقّق كلاهما في أرض الواقع، وهما مؤذنان بمستوى ثالث، فالمستوى الأول يتمثل في إحياء الأرض بعد موتها، أو موتها بعد حياتها، فتكون الأرض مخضرة في الربيع، ثم يأتي الخريف فتكون حصيدا. والمستوى الثاني تحقّق في أهل القرى، فكم من قرية كانت عامرة بأهلها، تزدهر فيها الحياة بكل مظاهر الزينة من أنهار وزروع وثمار... ثم أصبحت بعد ذلك خرابا بما كسبت أيديهم! فصاحب الجنّتين، وأصحاب الجنّة، وأهل سبأ الذين كان لهم في مسكنهم آية قد قضوا جميعا لما جاء أمر الله تعالى. فالمستوى الأول يشير إلى نهاية الحياة الدنيا. والمستوى الثاني يشير إلى نهاية الأمم والمجتمعات. ويكون المستوى الثالث هلاك كل شيء، فعلم أن لا خلود في هذه الحياة. وهذا مدعاة إلى التفكير الجدي بمصير الإنسان، ومصير الحياة، ومصير كل مخلوق في الأرض والسموات، يقول سبحانه: "كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" (الرحمن، الآيتان 26-27). ولو تفكّر النّاس في سرعة انقضائها لما تنافسوا على متاعها الزائل،"وإن من تفكر في هذا، وكان على بصيرة، فهو جدير بأن يلتزم القصد والاعتدال في حياته الدنيوية المادية، ويصرف جلّ ماله وهمته في إعلاء كلمة الله وعزة أهل ملّته، وقوة دولته، والاستعداد لآخرته"(45).

لقد وجه القرآن الكريم صفعة مؤلمة للنهج المادي في التفكير حين أثبت زوال المادة وفناءها، وهو أمر مدعاة الى التفكير بغير هذا النهج، إن العقل يجب أن تتحول وظيفته من مناقش مبدع الى مؤمن مسلم عند أول عتبات عالم الغيب. وانقضاء الدنيا وزوالها ينبني على مرجعية الوحي، ولذلك يتوجه القرآن الى استثارة تفكير الإنسان لينظر في حكمة الخلق وغايته.

المبحث الثالث: أهداف التفكير ومقاصده

إن التفكير ليس مجرد وهم نظري لا تعلّق له بكسب الإنسان، بل إن كسب الإنسان يستند إليه، سواء في الماديات أو المعنويات، ومن هنا يرى ابن قيم الجوزية أن أصل الخير والشر من قبل التفكّر؛ فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك، والحب والبغض(46). إن التفكر هو سر الحياة في الإنسان. وقد جعله القرآن حافزا له على أن يسمو به في معارج الروح أو مراقي المادة. وقد مثّل هذا الرقي باتجاهيه الأنبياء والمرسلون، وظل الماديون مثقلين بالاتجاه الثاني فأورثهم قلقا واضطرابا، وملأ حياتهم عليهم حيرة وفراغا.

وإذا كان التفكير بهذه الصفة فإنّه مبعث الترقّي أو التردي بالنسبة إلى الإنسان ووظيفته الأساس في الحياة، "فإن جماع القواعد الفقهية في الترقّي الفردي هو ما يتحقّق به التعاون في كيان الفرد بين قدراته المختلفة. فلا بد من تحقيق العدل بين عنصري الإنسان: الروح والمادة. ولا بد من العدل بين وسائل الإنسان في المعرفة، فقد ركب في الإنسان قوى إدراكية مختلفة الأنواع ؛ منها العقل، ومنها الحواس، ومنها البصيرة. وفقه الخلافة في هذا الشأن هو ترقية آلة الحس بإعمالها في تعرف المحسوسات، وإكسابها الخبرة المطّردة في ذلك حتى ترتقي صعدا في القدرة على استكشاف مظاهر الكون، ورصد دقائقه الحسية والظاهرة والخفية، وكذلك ترقية آلة العقل بإعمالها في إدراك الدلالات المجردة للمحسوسات، وإكسابها القدرة على النفاذ إلى الحقّ انطلاقا من تحليل دلالات الحس، وترقية البصيرة بتنظيف النّفس من أدرانها حتّى تغدو على حال من الصفاء تدرك به بعض الحقائق على نحو مباشر، وكل ذلك مع الإبقاء على قدر من الموضوعات المعرفية توطّن النفس - في الوصول إلى الحقيقة فيها- على الاستعداد لقبول خبر الوحي؛ إذ لا يكون للوسائل الذّاتية للإنسان مبلغ إليها باستقلال"(47). فبالتفكّر يستطيع الإنسان أن يكتشف نفسه ومواهبه، ويحقّق الأهداف التي رسمها الوحي، ولنوضح ذلك في المطالب الآتية:

الهدف الأول: الاهتداء إلى وحدانية الخالق جلّ جلاله

يمكن القول إن أهم هدف توجه القرآن الى تحقيقه هو ترسيخ أسس التصور الحقّ حول الاعتقاد بالله الخالق والكون المخلوق. لقد بسط الله تعالى للإنسان في كتابيه: المسطور والمنظور الميادين التي تمكنه من تنمية ملكة التفكير وتطويرها، ليصل الإنسان من هذين الكتابين الى قناعة مطلقة بأن الله واحد لا شريك له... يقول أبو حامد رحمه الله: "يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم"(48)، لأن كل الدلائل والآيات التي بثّها الله تعالى في الكون تدلّ عليه، وتقود إلى

الإقرار له بالوحدانية.

إنّه حين يتحدث القرآن عما امتن الله به من نعم على الإنسان من إنزال الماء من السماء وإنبات الزرع والزيتون والنخيل والأعناب...، كما في (النحل، الآيتين 10-11) تكون ثمرة التفكير ههنا الوصول الى أن الإيمان بالمنعم سبحانه فريضة لا تستقيم الحياة بدونها، إن من تفكّر في الحبة كيف تصير شجرة تمتد بجذورها وأغصانها، وتتنوع في أشكالها وألوانها وثمارها وطعومها "علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء، في شيء من صفات الكمال"(49). قال الزركشي: "جعل مقطع هذه الآية التفكر؛ لأنّه استدلال بحدوث الأنواع المختلفة من النبات على وجود الإله القادر المختار"(50).

وحين يتحدث عن آيات مد الأرض وجعل الرواسي فيها...، كما في (الرعد، الآية 3) تكون ثمرة التفكير الاستدلال والاعتبار بها، "فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبرها، دون غيره، ...، وأن القدرة التي أبدع بها ذلك هي القدرة التي لا يتعذّر عليه إحياء من هلك من خلقه، وإعادة ما فني منه، وابتداع ما شاء ابتداعه بها"(51). وبعبارة أخرى، فإن من مقاصد التفكير رد الفكر كله إلى مبدأ الوحدانية المطلقة لله رب العالمين؛ لأن العقيدة هي المحرك للبناء وصنع الحضارة، وهذا من شأنه" أن يطبع العقل في سعيه المعرفي العام بحيث يكون جاريا على مبدأ موحد في التفسير والتعليل، فإذا هو يرجع كل الظواهر والأحداث في أسبابها ونتائجها إلى ذلك المبدأ؛ إذ لما كان الاعتقاد بوحدانية الله متمكنا في النفس، فإن ذلك يشكل العقل على طابع في النظر تردّ فيه الكثرة إلى الوحدة، وتؤالف فيه المعطيات على اختلافها عقلية وحسية وخبرية لتوحد في دلالاتها على الحقيقة الواحدة"(52).

وفي قوله تعالى واصفا أولي الألباب:"الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النّار" (آل عمران، الآية 191) يقول أبو حامد: "فأول التفكير أنتج لهم أن المخلوقات لم تخلق باطلا، ثم تفرع عنه تنزيه الله وسؤاله أن يقيهم عذاب النار؛ لأنهم رأوا في المخلوقات طائعا وعاصيا؛ فعلموا أن وراء هذا العالم ثوابا وعقابا، فاستعاذوا أن يكونوا ممن حقّت عليه كلمة العذاب، وتوسلوا الى ذلك بأنهم بذلوا غاية مقدورهم في طلب النجاة؛ إذ استجابوا لمنادي الإيمان، وهو الرسول وسألوا غفران الذنوب وتكفير السيئات، والموت على البر الى آخره فلا يكاد أحد من أولي الألباب يخلو من هذه التفكرات وربما زاد عليها"(53). قال الشوكاني: "إن هذا الفكر إذا كان صادقا أوصلهم الى الإيمان بالله سبحانه"(54).

الهدف الثاني: الوقوف على مقاصد الحياة

لفت القرآن الإنسان الى التفكر في حكمة الخلق وغايته بوصفها أهم ركيزة تستند إليها الحياة الإنسانية، كما في قوله تعالى: "أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحقّ وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون" (الروم، الآية 8)، وما زالت أكثر أمم الأرض اليوم في معزل عن تصور هذه الغاية، وهو وضع أدى الى تعثر الحياة، وسيادة الفوضى والاضطراب والظلم فيها. فالتفكر هنا من وظائفه إدراك الحكم والأسرار والعلل والغايات، والمقاصد والأهداف من أعظم أمر الى أحقره مما هو متصل بالكون والحياة والإنسان.

ولما كان العقل البشري عاجزا عن تصور هذه الغاية بمفرده بعث الله سبحانه الأنبياء والرسل ليعرفوا الإنسان بهذه الغاية وتلك الحكمة. لكن موقف الإنسان إزاءهم تمثّل في العناد والاستكبار ووصفهم بالجنون، فاستوجب المستكبرون الذم والتوبيخ؛ لأنهم عطلوا ملكة التفكير ولم ينتفعوا بما جعلت له من تجنب المهالك والشرور، قال تعالى: "أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنّة إن هو إلا نذير مبين" (الأعراف، الآية 184). إن التفكر في حكمة النبوة بوصفها المرشد إلى معرفة مقاصد الحياة يعود بثمرة كبيرة على الإنسان. إنّها ثمرة الهداية التي تعصم الإنسان من الوقوع أسيرا للخرافات والأوهام والأساطير والتخيلات. فالنبوة لا يمكن أن تعتريها هذه الآفات، قال تعالى: "قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد" (سبأ، الآية 46). إن القرآن يقلّص عدد المجتمعين للتفكر في شأن النبوة إلى أقل عدد ممكن؛ حتى لا يتشعب التفكير ويخرج عن غايته ومقصده، وحتى لا تأخذ المتفكر العزة بالإثم حين يجتمع عليه عدد كبير من المبطلين للنظر في شأن النبي أوالنبوة، فيزل لسانه كما زلّ قلبه عن اتّباع الحقّ، فيفتري على النبوة الكذب يباهي بذلك جمهور المبطلين.

وتبدو محاولة ابتزاز النبوة لإشباع هوى النفس وشهواتها محاولة مادية يائسة في التفكير؛ إن النهج المادي في التفكير ليس نهجا سويا في التعرف على حكمة النبوة وحقيقتها وغايتها. ويأتي تحذير القرآن شديدا من طغيان هذا النهج على الإنسان من أجل إشباع تلك الرغبات والأهواء؛ لأنّه يضلّ عن معرفة الحقّ والحقيقة ويؤدي الى عمى القلب

والبصيرة. قال تعالى: "قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتّبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون" (الأنعام، الآية 50)، على سبيل الإنكار عليهم، وتوبيخهم لأجل ضعف عقولهم وعجزها عن بلوغ غاية النبوة وأهدافها، هذا الضعف له سببان: الدافعية نحو التحدي للشعور بأن النبوة تبحث عن مكاسب، والاستكبار الناشئ من الشعور بالعلو على الآخرين، هذان السببان أديا الى محدودية التفكير وضيق أفقه، وهو ما يؤدي بالإنسان إلى أن يكون في تفكيره أسيرا لغرائزه وشهواته ؛ ففرض على النبوة أن تلبي له تلك المطالب، وهو ما لا تملك النبوة من أمره شيئا.

لقد ذم الله تعالى - في السياق نفسه - بعض عتاة المستكبرين من المشركين الذين أصابتهم الحيرة في شأن النبوة وبرهانها، فأعمل فكره في الاتجاه الخاطئ، قال تعالى: "إنّه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر" (المدثر، الآيات 18-20). والآية تدلّ بوضوح على ان عملية التفكير قد رافقها تقدير مسبق خاطئ باتجاه الكفر والإلحاد. وحري بالذكر هنا أن ذمة ليس منصبا على التفكير، بل على التقدير- المتمثل في الأفكار والمعتقدات المسبقة- الذي أفرزته عملية غير حيادية من التفكير. وعلى العموم "فالتقدير من الإنسان وجهان، أحدهما: التفكر في الأمر بحسب نظر العقل وبناء الأمر عليه، وذلك محمود، والثاني: أن يكون بحسب التمنّي والشهوة، وذلك مذموم"(55). وعلى ذلك الوجه المذموم كان تفكير الماديين أصحاب الهوى.

ومن أسس التصور الحقّ أن الله تعالى حين نفى العبثية عن هذا الخلق وعن الحياة، أثبت حكمة ذلك بقوله سبحانه: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا" (الملك، الآية 2). فمقصد الحياة التنافس في عمل الصالحات، ليجزى كل إنسان بما قدم يوم القيامة، وقد قرب هذا اليوم فأقام دليلا عليه في ممارسة الإنسان لنومه ويقظته، لقد بين أن نوم الإنسان كموته، وأن يقظته كبعثه يوم القيامة. إن موت الإنسان يعني أن للإنسان أجلا في هذه الحياة، هذا الأجل منسجم مع نظام الكون من حوله فإن للكون أجلا كذلك، قال تعالى: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الزمر، الآية 42). لقد أثار التفكير هنا لإثبات المعاد، كما أثاره لإثبات النبوة؛ لإن العلم بالنبوة والمعاد راجع إلى الفكر والعقل، كما ذكر ابن القيم(56).

الهدف الثالث: إصلاح النفس وإعمار الكون بما شـرع الله تعالى

لقد هدى الوحي الإنسان للتي هي أقوم، وبين له قواعد صلاحه، وأسباب هلاكه. فدعا إلى توثيق العلاقة الأسرية والرابطة الزوجية؛ لأنّها أساس بناء المجتمع واستقراره، وعلى الفكر أن لا يقف عند حدود العلاقة الظاهرة -الجنسية- بل يتجاوز ذلك إلى ديمومة الحياة الإنسانية، ويمكن أن نقول إن القرآن هنا دعا إلى التفكر في مقصد مهم من مقاصد الشريعة هو حفظ النسل، فحين تحدث القرآن عن نعمة الزوجية وما جعل فيها من مودة ورحمة ختم الآية بقوله: "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الروم، الآية 21)، "لأن الفكر هنا يؤدي إلى الوقوف على المعاني المطلوبة من التآنس والتجانس بين الأشياء كالزوجين"(57). كذلك قصد القرآن الى تثبيت حقائق التشريع ووجه الفكر الى تبين أسراره ومقاصده. والتفكير الراشد لا يقود إلى الخروج على هذا النظام أو تعطيله، أونفي المودة والرحمة منه، في حين ان الأهواء تريد أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة جنس ومتعة فقط، عند ذلك لن يتميز الإنسان عن الحيوان في شيء. إن التفكير الراشد يجعل الارتباط الوثيق بينهما على أسس القرآن مما يحقّق كمالا واتّزانا في حياة الإنسان واستقرارا. فليتفكر في مقاصد الزواج وآثاره على صلاح الإنسان والحياة والأخلاق والسلوك والاقتصاد به.

ومما ينبغي للتفكّر أن ينشط بساحته مما فيه صلاح الإنسان وحفظ عقله وماله مسألة الخمر والميسر، ومسألة الإنفاق، كما في قوله تعالى: "كذلك يبين الله لكم الآيات لعلّكم تتفكرون في الدنيا والآخرة" (البقرة، الآيتان 219-220). ذكر ابن عاشور أن في قوله: "يبين الله لكم" امتنانا وتشريفا بهذه الفضيلة؛ لإشعاره بأن البيان على هذا الأسلوب مما اختصت به هذه الأمة، ليتلقوا التكاليف على بصيرة، بمنزلة الموعظة التي تلقى على كامل العقل موضحة بالعواقب، لأن الله أراد لهذه الأمة أن يكون علماؤها مشرعين، وان معنى قوله "لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة" ليحصل للأمة تفكّر وعلم في أمور الدنيا والآخرة... إن ذكر المصالح والمفاسد والثواب والعقاب تذكير بمصلحتي الدارين، وفي هذا تنويه بشأن إصلاح أمور الأمة في الدنيا(58). وقال الآلوسي: "معنى "لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة" أي: في الآيات، فتستنبطوا الأحكام منها، وتقيموا المصالح والمنافع المنوطة بها. وبهذا التقدير حسن كون ترجي التفكر غاية لتبيين الآيات في الدنيا والآخرة، أي: في أمورها"(59). ولهذا "فإن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها النّاس في معايشهم من الفروض

الدينية، إذا أهملت الأمة شيئا منها، فلم يقم به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه، كانت كلها عاصية لله مخالفة لدينه، وعلى هذا قام صرح مجد الإسلام عدة قرون"(60).

هذا فضلا عن أن التفكر يثور ملكة الاجتهاد لدى علماء الأمة، قال الجصاص: "لقد حثنا سبحانه على التفكر في كتابه، وحرضنا على الاستنباط والتدبر، وأمرنا بالاعتبار؛ لنتسابق الى إدراك أحكامه، وننال درجة المستنبطين والعلماء الناظرين. ودلّ بما نزل من الآي المحتملة للوجوه من الأحكام التي طريق استدراك معانيها السمع على تسويغ الاجتهاد في طلبها، وان كلا منهم مكلف بالقول بما أداه إليه اجتهاده واستقر عليه رأيه"(61). وبذلك يسير الدين مع الحياة لا يتخلّف عنها.

لقد غير الله بهذا الكتاب مجتمع الشرك والظلم والوثنية، لقوة تأثيره، وبلوغ أثره في النفس مبلغا عظيما، فنزول القرآن لو أمكن على جبل لأحدث فيه خشوعا(*) وتصدعا، فالأجدر بالإنسان أن تأخذه هزة هذه الآيات، وخشوع تلك الهمسات، ليرتجف من أعماق وجدانه، متصدعا من الخشية، خشية الله فحسب. فالقرآن نداء من الخالق الجليل سبحانه ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية، فما أحدثه من تغيير شامل في حياة الإنسان ونظامه وتفكيره يعد ثمرة لهذا النداء، فلا هدى إلا بهديه، ولا خشوع إلا من صوته(62).

وكما أصلح الله الإنسان بهذا التشريع، أصلح دنياه بما جعل فيها من سنن وقوانين محكمة، ليتمكن من إظهار مواهبه وقدراته في الكون، فيسخّر ما فيه لمصلحته ومنفعته، ويستثمر قوانينه لجلب الخير لنفسه ودفع الضر عنها، فحين يتحدث القرآن عن إنبات الأرض بالماء (النحل، الآية 11)، فإنّه يدلّل على أن جريان النعم بهذا الأسلوب فيه توجيه الى اتّباع سنن الله تعالى في عملية الإنبات؛ من أجل تلبية حاجات الإنسان من الغذاء والطعام والشراب. ومن أجل أن يثور الطاقات الكامنة في الأرض ويستثمرها أحسن استثمار، بهذا يؤسس لعلم النبات والزراعة. وحين يدعو إلى إنفاق فضل المال واستثماره بعيدا عن الخمر والميسر، فإنّه يؤسس لعلم الاقتصاد. وحين يتحدث عن مد الأرض وزرعها بالرواسي، فإنّه يؤسس لعلم الجغرافيا وطبقات الأرض، وحين يتحدث عن تسخير ما في السموات فإنّه يؤسس لعلم الفضاء، وحين يتحدث عن تسخير ما في الأرض فإنّه يبقي الباب مفتوحا لكل علم يقود إلى خير الإنسان ونفعه، وحين يتحدث عن الحياة الزوجية وديمومتها فإنّه يؤسس لعلم التربية ليعرف كل ما له من حقوق، وما عليه من واجبات. "إنّه بقدر التفكر في آيات الله تعالى المنزلة على رسوله، وآياته في الأنفس والآفاق، وسننه وحكمه في البشر، وسائر المخلوقات، يكون ارتقاء النّاس في العلوم والأعمال، من دينية ودنيوية"(63). فإن لم تتنور هذه العلوم بهداية الوحي، فإنّها ستبعث الظلمة في حياة الإنسان والكون. ومن هذين القسمين يتضح "أن أنفع الفكر يكون في مصالح المعاد وطرق اجتلابها، ودفع مفاسد المعاد وطرق اجتنابها. والفكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، والفكر في مفاسد الدنيا وطرق اجتنابها والاحتراز منها. فإذا فكّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا. وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت، أورثه ذلك الجد والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت"(64). وبالجد والاجتهاد يعمر الكون وتعمر الحياة.

إن استثمار ما سخّره الله تعالى يعد تكليفا يسأل عنه الإنسان يوم القيامة، ففي الحديث" يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا، وسخّرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع(*)، فكنت تظن أنّك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني"(65). ففي الحديث إشارة إلى أن التقصير في الانتفاع مما سخّر الله تعالى خلاق من يكذّب بلقاء الله يوم القيامة. فلتفكر الأمة كيف تصلح شؤون دينها ودنياها، فإنّه لموقف بين يدي الله تعالى.

الخـاتـمـــة

تبين من عرض موضوع التفكر وإثارته المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في صياغة تفكير الإنسان وتوجيهه الوجهة الصحيحة الهادفة، وذلك حين توضح المقصود من هذا المصطلح الذي دار في ثمانية عشر موضعا في سياقات متنوعة، حملت شؤونا كلية جامعة ذات اتصال وثيق بالإنسان وما ينبغي أن يحمل من معتقدات وتصورات. ومن أهم نتائج هذه الدراسة:

(*) إن لهذا الخشوع المنبثق عن التأمل وظيفة كبيرة في إزالة كثير من الأمراض النفسية التي يعاني منها الإنسان؛" لأن الحالة النفسية للتأمل العميق هي حالة من السكينة مضادة تماما للقلق والغضب"، بدري، التفكر، ص 47. "إن سماع آيات من القرآن الكريم يأتي بجميع التغيرات الفسيولوجية الدالة على خفض التوتر والقلق، ونزول السكينة، وزيادة المناعة ضد الأمراض، "انظر: بدري، التفكر، ص 51.

(*) يعني: ألم أجعلك رئيسا مطاعا.

أولا: التفكير عملية ذهنية عميقة تشترك فيها أنشطة الإنسان النفسية والروحية والمعرفية والعاطفية تُبنى على مقدمات حسية أو عقلية، لتحصيل معرفة مفيدة أو علم نافع. فهي عملية معيارية تحكم الإنسان ونشاطه الذهني.

ثانيا: وردت مادة هذا المصطلح بصيغ فعلية، تركز معظمها في الآيات المكية لتنسجم مع منهجية القرآن في إنهاء ظاهرة التقليد.

ثالثا: إن التفكير الراشد ينضبط بحسن التقدير الناتج عن عملية حيادية في التفكير انبنت على مقدمات صحيحة، وابتعدت عن المؤثرات الخارجية توصلا للتركيز والاستغراق. ولا بد من أن تتم في إطار ذكر الله تعالى ليتنور نتاجها بنور الوحي، ولتتغذّى الروح بهذا النور أيضا، ولا تكون إلا فيما دقّ مسلكه، ولطف مأخذه من الأمور، وأن أولى ما ينبغي أن تنضبط به -في سياق ترتيبها للأولويات- قضايا الإنسان الكبرى في عالم الشهادة فحسب.

رابعا: أثار القرآن ملكة التفكير عند الإنسان بأساليب عديدة، كالاستفهام، والتذكير بالنعمة، ونصب القدوة والمثل، والإثارة المشوقة، وضرب المثل، وإثارة النواحي الجمالية في الإنسان.

خامسا: بسط الله تعالى للتفكر كتابين: كتاب الوحي وما بين فيه من سنن في الأنفس والآفاق، وكتاب الكون وما فيه من آيات وسنن. فجاءت حقائق كتاب الوحي منسجمة مع حقائق كتاب الكون، وانتظمت معا لتشكل حقائق الوجود الإنساني من تصورات ومعتقدات، ونظم ضرورية للحياة الإنسانية. إن الالتزام بالسنن الإلهية في عالم النفس والكون واستثمارها، يعد أبرز معلم منهجي في التفكير في هذه السنن من حيث تأصيله منهج قراءة الوحي في ضوء كتاب الكون، وقراءة كتاب الكون في ضوء توجيه كتاب الوحي.

سادسا: أرشد المنهج القرآني إلى التعرف على مقاصد التشريع ومقاصد الآيات القرآنية والكونية ؛ لمعرفة أسرارها والعلاقات التي تحكمها، لإنشاء العلوم التي تؤدي إلى إصلاح النفس، وإعمار الكون والحياة.

سابعا: لقد جمعت آيات التفكر شتات الفكر الإنساني، وأثنت على أولئك الذين يعملون فكرهم في هذا الخلق، ولم تشغل الإنسان بلهو ولا باطل، ولكن شغلته بما يعود على نفسه وإيمانه بالخير والفائدة، وهذا أمر لا تقتصر فائدته على الدنيا، بل تشمل الحياة الآخرة كذلك.

ثامنا: إثبات وحدانية الخالق جلّ جلاله، وإثبات المعاد، والوقوف على مقاصد الحياة الدنيا، وإثبات زوالها، ومصير الإنسان، ومعرفة وظائف النبوة ومقاصدها من أهم ما يتوجب على الإنسان الوصول إليه، فإن حلّق في الفضاء، وغاص في أعماق المحيطات دون أن يهتدي إلى هذه الحقائق، فإن معرفته لن تغني عنه من الله شيئا.

الهوامش

(1) الرازي، مختار الصحاح، ص 509.
(2) ابن منظور، لسان العرب المحيط، 1120/2.
(3) البغوي، معالم التنزيل، 411/1.
(4) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، 705/2.
(5) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 384.
(6) الغزالي، إحياء علوم الدين، 4 / 425.
(7) النجار، الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، مجلة التجديد، انظر: هامش ص109.
(8) انظر: إحياء علوم الدين، 4 / 426.
(9) انظر: الجرجاني، التعريفات، ص76.
(10) ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، 438/1.
(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 314/4.
(12) المصدر السابق نفسه، 3 / 330.
(13) الغزالي، إحياء علوم الدين، 4 /425.
(14) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 4 / 315.
(15) الجرجاني، التعريفات، ص 88.
(16) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، 1 / 194.
(17) انظر: العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي، ص101-102.
(18) رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، 460/9.
(19) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، 3 / 294.
(20) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 11 / 233.
(21) بدري، التفكر من المشاهدة إلى الشهود، ص 31.
(22) النورسي، الكلمات، ص 848.
(23) انظر: ألب أرسلان أجق، تقييم رسائل النور من زاوية تصنيف العلوم، ص452-453.
(24) رضا، تفسير المنار، 4 / 299.
(25) ناصر الدين أبو الخير البيضاوي؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار المعرفة، بيروت، ص 100.
(26) الآلوسي، روح المعاني، 4 / 195.
(27) الثعالبي، الجواهر الحسان، 1 / 340.

(28) سيد قطب، في ظلال القرآن، 2 / 1094.
(29) الآلوسي، روح المعاني، 2 / 52.
(30) بدري، التفكر، ص 57.
(31) محمد عبده، ص 109.
(32) الغزالي، إحياء علوم الدين، 4 / 431.
(33) الجمل، الفتوحات الإلهية، 3 / 386.
(34) القاسمي، محاسن التأويل، 13 / 168.
(35) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1 /353.
(36) البخاري، الجامع الصحيح، 8 /201-202. الحديث رقم 4538.
(37) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 53/3-54.
(38) رضا، تفسير المنار، 3 / 70.
(39) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 9 / 178.
(40) المصدر السابق نفسه، 9 / 179.
(41) رضا، تفسير المنار، 9 / 409.
(42) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 4 / 313.
(43) انظر: النجار، الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، ص24-26.
(44) انظر: عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، ص117-118.
(45) رضا، تفسير المنار، 11/ 349.
(46) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص219.
(47) انظر: النجار، الاستخلاف، ص96- 98.
(48) الغزالي، إحياء علوم الدين، 4 / 447.
(49) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 101/5.
(50) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 1 /84.
(51) انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 63/13-64.
(52) النجار، الاستخلاف، ص 108-109.
(53) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 197/4.
(54) الشوكاني، فتح القدير، 1 / 411.
(55) المناوي، التوقيف، 1 / 197.
(56) انظر: ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص161.
(57) الجمل، الفتوحات الإلهية، 3 / 388.
(58) انظر: التحرير والتنوير، 1 /353.
(59) الآلوسي، روح المعاني، 2 / 116.
(60) رضا، تفسير المنار، 2 /339.
(61) الجصاص، أحكام القرآن، 4 / 34.
(62) انظر: الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 225.
(63) رضا، تفسير المنار، 9 / 409.
(64) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص 219.
(65) الترمذي، كتاب السنن، 4 / 619، الحديث رقم 2428.

المصادر والمراجع

ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير (1973م)، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، التبيان في أقسام القرآن، (بلا)، (دار المعرفة)، بيروت.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الفوائد (1403هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم، (بلا)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أجق، ألب أرسلان، تقييم رسائل النور من زاوية تصنيف العلوم (1996م)، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث حول فكر النورسي، سوزلر للنشر، استانبول.

الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بلا)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، (متن فتح الباري)، دار الإفتاء السعودية، الرياض، كتاب التفسير.

بدري، مالك، التفكر من المشاهدة إلى الشهود (1991م)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن.

البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل (1407هـ)، دار المعرفة، بيروت.

البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (بلا)، دار المعرفة، بيروت.

الترمذي، محمد بن عيسى، كتاب السنن، تحقيق أحمد شاكر، (بلا)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الجرجاني، محمد بن علي، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري (1405هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

خليل، عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم (1991م)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن.

الدمشقي، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم (1402هـ)، دار المعرفة، بيروت.

الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح (1979م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات، (بلا تاريخ)، دار المعرفة، بيروت.

الرازي، أحمد بن علي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق محمد قمحاوي (1405هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، (بلا)، دار المعرفة، بيروت.

الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل، (بلا)، دار المعرفة، بيروت.

الزركشي، محمد بهادر بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (1391هـ)، دار المعرفة، بيروت.

الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، (بلا)، دار الفكر، بيروت

الصغير، محمد علي، الصورة الفنية في المثل القرآني (1981م)، دار الرشيد، بغداد.

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (1400هـ)، دار المعرفة، بيروت.

العلواني، طه، إصلاح الفكر الإسلامي (1995م)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن.

الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد، إحياء علوم الدين (بلا) دار المعرفة، بيروت.

القاسمي، جمال الدين، محاسن التأويل (1398هـ)، دار الفكر، بيروت.

القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (1967م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (بلا)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

محمد عبده، رسالة التوحيد (1979)، دار إحياء العلوم، بيروت.

المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق رضوان الداية (1410هـ)، دار الفكر العربي، بيروت.

النجار، عبد المجيد، الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية/ماليزيا.

النجار، عبد المجيد، الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية (1995م)، مجلة المسلم المعاصر.

النورسي، سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان الصالحي (1998م)، سوزلر للنشر، استانبول.

The Method of the Qur'an in Forming the Human Thinking

*Ziad K.M. Daghamin**

ABSTRACT

Among the faculties of realization which have been aroused by the Holy Qur'an is the faculty of thinking, therefore we see that the Qur'an forms the human thinking and directs it to the right way.

The Holy Qur'an aroused the faculty of thinking in many ways, such as affirmative question, the reminding in graces, installing the exemplar and pattern, excitement and motivation, which are mentioned in the first chapter.

The second chapter deals with the fields of thinking, such as the book of the revealation, the divine laws, andthe book of the universe.

The third chapter deals with the aims of the thinking, which are guidance to the oneness of God, the realization of the aims of the life, reforming the sole, and the +-construction of this world.

---

* Faculty of Islamic and Law Studies, Aal-Al-Bait University, Al-Mafraq, Jordan. Received on 22/10/2003 and Accepted for Publication on 11/2/2004.